المحاضرة العاشرة: القوة المتخيلة / أقسام الصورة الشعرية

بحث الصورة الشعرية عند الفلاسفة لا يتم إلا عبر مصطلح (التخييل) أيضا؛ فمصطلح (التخييل) بقدر ما يكشف عن جذره المنطقي يكشف عن أساسه النفسي، وهذا يحيلنا من جديد إلى طبيعة تصور الفلاسفة للنفس البشرية وقواها وملكاتها. واستعماله كمصطلح إنما يستند على أساس سيكولوجي باعتبار الشعر وليد الخيال لدى المبدع، وموجها لخيال المتلقي. فخاصية الشعر التخييلية مصدرها احتضان القوة المخيلة له التي تهبه لونا معرفيا خاصا بتشكيل معانيه في صور. فالتخييل بقدر ما يشير إلى منشئه النفسي، يعطي للشعر تمايزه انطلاقا من هذه النشأة؛ فالتصور الدقيق لطبيعة الخيال الشعري لدى الفلاسفة يستوجب تصور رأيهم في إقسام النفس البشرية نظرا لأن الخيال أحد قواها، وهو بالتالي الحصن الذي يتولد في الشعر.

ولقد قسم الفلاسفة النفس إلى قوى وملكات، متدرجين في ذلك من القوة النباتية، فالحيوانية، إلى القوة الناطقة[1]. وإذا كان تمايز الإنسان إنما يكون بالقوة الناطقة، باعتبار الإنسان حيوانا ناطقا، فإنه بالقوة الحيوانية لا يكاد يخرج عن مستوى الحيوان، والنباتية تسويه بالنبات، وإذا كان في الإنسان صفات النبات والحيوان، فإن هذه القوى لا تمثل سوى مواد للصورة التي ستتشكل في العقل: "فالغاذية الرئيسة شبه مادة للمتخيلة، والمتخيلة صورة في الحاسة الرئيسة. والمتخيلة الرئيسة مادة للناطقة الرئيسة، والناطقة صورة في المتخيلة، وليست مادة لقوى أخرى، فهي صورة لكل صورة تقدمتها"[2].

وإذا كان قسم النباتية لا يشكل في النفس البشرية سوى قوة دنيا، فإن القوة التي بعدها وهي الحيوانية تكون منشأ الحس والتخيل، وعن الناطقة يتولد العقل. فالحس والتخيل والعقل ستشكل منافذ وطرق الإدراك البشري، ومن ثم سيختزل فيها تصور الفلاسفة لنظرية المعرفة.

وإذا كانت قوى الحس الظاهرة معروفة، وهي الحواس الخمس التي بواسطتها يتم إدراك المحسوسات، ويمثل العقل بأقسامه لدى الفلاسفة المستوى الأسمى في الإدراك البشري، فإن للتخيل الذي هو وسط بين المستويين أقساما أيضا.

---

[1] - ابن رشد: تلخيص الخطابة، ص 589.

[2] - الفارابي: كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 92.

الحس المشترك والخيال والوهم والمتخيلة والحافظة، هذه القوى الخمس الباطنة تمثل في رأي الفلاسفة مستوى أعلى في الإدراك المعرفي بعد الحس، وقبل العقل، وهي الحس المشترك الذي يشكل بؤرة ومركز الحواس الخمس الظاهرة. وبواسطته يمكن للمدرك أن يحس بأكثر من حاسة في وقت واحد، ويختزن ما يدركه من محسوسات قوة ثانية هي الصورة أو الخيال. وهذا المخزون يتسنى لقوة الوهم أن تستخلص منه معاني جزئية ليست مفصولة عن الحس كإدراكها معنى الخوف من صورة ذئب، وتختزن مدركاتها في الحافظة أو الذاكرة، ثم المتخيلة التي تملك القدرة على التصرف في مخزون الخيال أو الصورة من محسوسات غائبة عن طينتها، تركيبا وإبداعا وتفريقا، مع مزجها بمعاني الوهم الجزئية. ويبدو أن تسمية هذه القوة بالمتخيلة وتميزها عن الخيال اعتباري فقط، أو فرق في الدرجة ربما، فحفظ المحسوسات يدعى خيالا، والتصرف فيها يسمى متخيلة، والتفريق يفترضه الفصل بين القوى ووظائفها.

ولذلك لم يخرج التصور الفلسفي للصورة الشعرية عما عرف في الصورة البلاغية عامة، المؤسسة على التشبيه والاستعارة والمجاز عامة. وفضل الفلاسفة في مبحث الصورة متجسد في ربطها بقوى النفس، وهذا المنفذ هو الذي أسس تصورهم لمفهوم الشعر المعبر عنه بـ(التخييل). ولذلك ورغم هذا الأساس السيكولوجي والمعرفي الذي أقام عليه الفلاسفة رأيهم في الصورة الشعرية، إلا أن طبيعة الصورة نفسها، وخصائص المادة أو الشيء الذي تشكل منه، والعلاقات وشروطها التي تتحكم في عناصر الصورة، تعيدهم في الغالب إلى طبيعة الفهم العربي للمسألة.